قصة واقعية:

من الأعمـــاق

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

إلى الأستاذ الهداوي ، وكل من في حياته قصة وفي أعماقه حب قديم وفي قلبه أشجان ، أهدي قصتي . ع . ع

صديقي ...

إنك أعرف الناس بمقدار حرصي على الإبقاء لهذه الذكرى على الكتمان في أعماق القلب الذي حملها سنوات؛ وما تثيره هذه الذكرى في نفسي من آلام وأشجان تذهب بهناءتي أياما بل شهورا لأنها تذكرني بجريمة ارتكبتها جنيت فيها على قلب كبير، وتصور لي نفسي مذنبة آثمة ، فيهب ضميري من رقاده فلا يزال وخزه كالحراب حتى يقيض الله لي من ينسيني هذه الذكرى بعض الوقت

ألست أنت الذي حاول مرارا أن ينتزع مني هذا السر الذي احتفظت به لنفسي وضننت به على أقرب الناس إلي وإليها ، فهل تظن أن البعد الذي بيننا يحل عقدة لساني فأقص عليك قصتي التي من أجلها هجرت بلدي إلى غير رجعة ، وأفضي إليك بذات نفسي فأطلعك على جرح قلبي الدامي الذي تجعله الذكرى يزكأ كلما مهده ؟

إن هذا الجرح هو الذي حال بيني وبين مشاركة الناس التمتع بهذا الجمال الذي وهبه الله عبـــاده . إنني لا آمن هذه الصحائف لأخط عليهـــا ما عجز عن انتزاعه الآخرون ولـكن ... لا ! محال أن أبوح لك . لقد كثر إلحافك بعد أن افترقنا وأنا أريد أن أسكت هذا اللسان الذي يطاردني في حضوره وغيبته مهما بعدت بيني وبينه المسافات ، وكأنك تتعمد إيلامي لأقضي لك بسري . وماذا علي لو أخبرتك خبرها ؟ وأنا اليوم لا أخاف قالة السوء ولا أخشى أن يزاحمني عليها أحد

كان ذلك منذ أعوام سبعة يوم كنت معي والتقينا بصديقنا (م) بعد عودته من الغيبة التي طال أجلها بيننا، ثم التقيت به مرات ولم تكن أنت معنا . ودعاني يوما لزيارته فلبيت دعوته ولا أدري لم دعاني وقد مضت سنوات على صداقتنا ولم يدع أحدنا الآخر إلى منزله ؟ ولا لماذا خرجت أنا عن مألوف عادتي فلبيت دعوته ؟ ذهبت فراعني منزلهم الجميل ورياشه الفاخر وتلك الحديقة الزاهرة التي تحيط به

ولما استقر بي المقام جاءت شقيقته (ن) وهي إذ ذاك في الثالثة عشرة من سني حياتها ، وهي طالبـة في المدرسة وقدمني إليها قائلا : (أستاذك الذي سيقوم بإعطائك دروس اللغة العربية) وأخذت بهذه المفاجأة إذ كنت أتحاشى دائما هذا النوع من الدروس مهما كانت سن الفتاة . بيد أن الموقف ألجم لساني وصداقتنا حالت بيني وبين الاعـتراض ، كل ذلك كان سهلا بجانب نظرتها إلي ، نظرة فيها كل أنواع البراءة والدلال ؛ فوجدتني أؤمن على قوله بغير شعور مني

ومدت يدها الصغيرة تصافحني وعلى ثغرها ابتسامة جميلة خلت من أنواع المخاتلة والرياء ؛ لأنها بسمة تكسوها براءة الطفولة ؛ إذ كانت إلى هذه السن لا تزال طفلة في كل أعمالها . فإذا قدرت سني حياتها عند رؤيتها ما زدتها على عشر سنوات لضمور جسمها ووداعة خلقها وتعثر كلماتها في النطق

وحددنا موعد الدرس ، وفي اليوم التالي ذهبت إلى منزل صديقي ، أو بالأحرى تلميذتي ، فوجدتها في حجرتها الخاصة تنتظرني فقضينا بعض الساعة في ترتيب وتنظيم ، واتفقنا على الخطة التي تناسبها

صرت بعد ذلك أذهب إليها في الموعد المحدد . وعلى مر الأيام زال ما بها من تلعثم ، وكنت أرى منها غبطة وسرورا كلما رأتني قادما ، فقد كانت تنتظرني في نافذة حجرتها المطلة على الحديقة فإذا رأتني هبت تتلقاني بباب حجرتها . وبدأت ألحظ عليها أنها تبذل جهداً كبيراً لتسوقني عن الخروج وتحتال لذلك الحيل، وأكثرها توجيه أسئلة كنت أجدني مضطرا للاجابة عنها لأني كنت أخشى أن تظن بي العجز . وكم من مرة أشاحت على فرصا كنت أنتظرها

بفارغ صبر . مر العام على خير وجوهه . وكانت أولى المتقدمات من زميلاتها وانتقلت من مرحلة إلى مرحلة أخرى

وظننت أن معنى قد انتهت؛ فانقطعت عنها ، وماذا بقي علي؟ لقد أديت واجبي وقمت بما تقتضيه الصداقة

وبعد أيام من انقطاعي وكنت جالسا في حجرتي غارقا بين أوراقي ، إذ طرق الباب طارق ، فلما أذنت له بالدخول وكنت أحسبه خادمي فلم أهتم بالأمر . ولما رفعت وجهي لأسأله ماير يد؟ رأيت أمامي صديقي (م) وتلميذتي فأخذت بهذه المفاجأة ؛ ومددت يدي مسلما معتذرا. فلما تقدمت أسلم عليها مدت يدها وهي تتصنع الغضب ولكنها لم تستطع أن تخفي تلك الابتسامة الحلوة التي عودتني إياها كلما لقيتها

جلسنا في غرفتي، وكلما نظرت إليها ازدادت شفتاها انفراجاً، ولكنها سرعان ما كانت تستردها لتظهر بمظهر الغاضبة . ثم انفرجت شفتاها لا عن ابتسامة ولكن عن عتاب جميل لتقصيري عن زيارتهم بعد انتهاء العام الدراسي . ولقد كانت في إلقاء الأسئلة وتضييق الحلقة ماهرة كأنها نائب يحقق في حادثة يريد أن يصل إلى الجاني، وكلما هربت من طريق جاءتني من آخر. وقدمت لها من المعاذير مالا يحصى ولكنها لم تقبل منها واحدا وكانت كلما ألقيت إليها عذرا رأيتها تهز ذلك الرأس الصغير علامة عدم الارتياح، ولم تتركني حتى قطعت على نفسي عهدا باستئناف زيارتهم مرة أخرى وسيكون ذلك بعد غد . ذهبت إلى منزلها فإذا بي أفاجأ باستعداد لحفل . وتلقتني باسمة الثغر طلقة المحيا عليها سيماء من يحاسبون نفسها ، وكان حفلا تزينه زهرات لم تتفتح مثلها وما زالت قلوبهن في الأكمام وتم عقد المدعوين ووقفت تقول كلمة صغيرة كما قالت فإذا هي تبدع وتجيد ، وفي نهاية كلمتها قدمتني للمدعوين على أن أتكلم كلمة فلم أسر لاقتراحها قدر ما سرتني كلمتها التي أشادت فيها بما بذلت معها من مجهود أهلها لهذا التقدم ؛ فكدت أعتذر لولا نظرتها إلى وما رأيته من عيون متجهة إلى شخصي

وقدمت لنا بعض زميلاتها أغنيات ورقصات أضفت على الحفل عنصر البهجة والسرور

وكانت جلستي بجانب فتاة وسيمة الوجه طلقة المحيا ذات شعر فاحم وقوام أهيف . . وعلى غير قصد مني لمست يدي ذراعها العاري فسرت رعشة غريبة في يدي فاضطربت ولحظت فتاتي ذلك إذ كانت نظراتها لا تفارقني ؛ فأسرعت تقدمها إلي ، فإذا هي ابنة عمها قد أتمت دراستها الجامعية هذا العام ، وحادثتني حديثاً شهيا خلب لبي واستولى على مشاعري ولم ينته الحفل حتى كنا على موعد للقاء في اليوم التالي. وتكرر لقاؤنا فازددت بها شغفا وهمت بها حبا ، وترامت الأخبار إلى تلميذتي بملاقتي بابنة عمها ، فكنت كلما زرتها شاهدت على وجهها مسحة من الهم والألم ، وكانت تتعمد ذكر ابنة عمها أمامي وتنظر إلي أثناء ذلك نظرات لم أعرف مغزاها إلا بعد فوات الأوان

وصحبتها يوماً إلى السينما وكنت على موعد مع ابنة عمها فاختارت المقعد الأوسط لتجلس بيننا فنفذت رغبتها ولكن فعلها آلم ابنة عمها ؛ فعتبت على مصاحبتي لهذه الصغيرة وإذعاني لرغبتها ، فقد كانت كل منهما تتربص بالأخرى ولكنها تتحاشى لقاءها ، عرفت حبيبتي أن ابنة عمها تحبني ولكنها لم تذكر لي شيئا عن ذلك

وهالني ما طرأ على تلميذتي من تغير ملحوظ فأصبحت تؤثر الوحدة وتتحاشى الناس . وتجلس معي صامتة واجمة ، وبدأت عيناها تذبلان ونظراتها تنكسر ؛ فحاولت أن أعرف سر ذلك منها فلم أفلح . وكانت كلما خرجت معي بمفردها — لأنها كانت ترفض دعوتي إذا علمت أن ابنة عمها ستر افقنا — تسر قليلا ويذهب عنها بعض حزنها ، وصارت لا تذكر غريمتها أمامي كما كانت تفعل قبل اليوم

وذهبت لأطلب يد ابنة عمها ! فلما تم كل شيء بعثت من يعلن الخبر في بيتها وكانت ترى من وراء ذلك إلى غرض في نفسها . ولما ذهبت في اليوم التالي إلى صديقي اذ كنا على اتفاق للذهاب الى إحدى الحفلات ، لم أجد تلميذتي تنتظرني كما هو مألوف . وهنأني الجميع ولكنها لم تحضر ، فسألت عنها فعجب الجميع لغيابها ، وبحثوا عنها حتى وجدوها ، فلما جاءت رأيتها قد انكمشت في نفسها .

وسألتها عن عدم استعدادها للذهاب معنا فاعتذرت بتعب نحسه . وحاولت كثيراً فلم توافق . وفي اليوم التالي علمت بأنها مريضة فزرتها وواظبت على زيارتها كل يوم ، غير أن حالها كان يسير من سيء الى أسوأ . وكانت تسرح خطواتها الى العالم الآخر فأشفقت على البيت الحزن والكآبة . وفي أحد الأيام ذهبت لعيادتها فانتهزت فرصة خلو حجرتها من الآخرين وسلمتني

غلافا. فلما همت بفضه أشارت الى إشارة فهمت منها أنها لا ترغب فى ذلك. ولما صرت خارج الدار فضضت الغلاف فوجدت صورتها بين أوراقه وتصفحت كتابها فاذا فيه ...

(حبيبى لقد أحببتك وأنت لا تدرى، وان كنت قد بادلتنى هذا الحب ، غير أنك كنت تستخف به لأنه فى نظرك حب طفلة ومادريت أن لهذه الطفلة قلبا . .

(وكم ندمت على أنى كنت سببا فى تعرفك بتلك التى سلبتك منى واستولت عليك من دونى ، وكثيراً ما حدثتنى نفسى أن أسحقها كما سحقت قلبى وأحطم حياتها كما حطمت حياتى . ولكنى كنت أخشى أن يكدر فعلى هذا صفو حياتك ويسبب لك الشقاء والآلام .

(لقد كان أسعد يوم فى حياتك هو أشقى أيام حياتى ، فبينما أنت تنعم بقرب حبيبتك وقد فاضت منك كأس السعادة . كنت أنا أقاسى آلاما تهد الجبال وأتجرع كأس الخيبة والحرمان غارقة فى نحى الحب الذى حطم أعصابى . بينما أنت تضحك ملء فك ، كنت أنا أبكى مصير حبى وأندب ذكرياتى الجميلة وأشيع آمالى الواسعة ، فى حجرتى المظلمة التى تذكرنى كل قطعة فيها بحبى ، وبأنك كنت فى يوم من الأيام لى وحدى ، فكم تمتعت فيها بالجلوس إليك لا يشاركنى فيك أحد . فى هذه الحجرة رحت أشكو منك وكنت قبل اليوم أشكو لك . فى هذه الحجرة سعدت بأحلامى الجميلة واليوم أذرف فيها الدمع على أطلال سعادتى الذاهبة .

(لقد هممت كثيراً بأن أكتب اليك بما ألاقى ، ولكن كان الوقت قد مضى والفرصة ضاعت . وهل كنت تصغى لكلماتى وأنا فى نظرك لا أعدو طفلتك الصغيرة ؟

(أتذكر يوم لقيتنى فى حجرتى منفردة أضع رأسى بين يدى وعلامات الألم تبدو على وجهى فقلت لى: لقد كبرت وغدوت تفكرين كما يفكر الكبار . ثم جلست تربت على كتفى وتمسح بيدك شعرى ، وأنت تسألنى عن سبب همى ، فكدت أجثو على ركبتى وأفتح قلبى بين يديك وأريق أمامك كل ما كنت أكظمه من الحنان وما يكربنى من الحب ، ويملأ قلبى من المواطف .

(لقد أصبح كل شىء فى هذا الوجود مصدره عذابى فكرهت كل شىء وأحسست بالبغض لهذا العالم ومن فيه فلم أعد أطيق رؤية أحد .

(لقد كان حبى لك كبيرا وكانت خيبته أكبر . فلم أقدر على تحمل ثقلهما. فاذا طوانى الموت فابك ياحبيبى على حبى لك لأنه سيبلى ولأنه قد توسد الثرى وكان يحلم بتوسد ذراعك ولأنه ضمه القبر وكان الواجب أن تضمه فى أحضانك ، ولفه الكفن وكان حقيقا أن يلفه وإياك فراش واحد ، واحتوته صحراء مقفرة وكانت أمنيته أن يحتويه عش تكون أنت سيده .

(إن تعلق بالحياة لا لأن نفسى عزيزة على ولكن للحب الذى تكنه لك. فاذا مت فلا تبك على لأن بكاءك يؤلمنى..ولا تحزن فان حزنك يشقينى.. ولكن اذكرنى كلما خلوت إلى نفسك) .

فى هذا الأسلوب الذى لا غموض فيه ولا تكلف فيه كتبت إلى خطابها وهو خطاب طويل ، فما انتهيت من قراءته حتى أحسست الدمع يتساقط من عينى ، وأن الأرض تدور بى، ولم أعرف أين أنا سائر ، وكدت أعود لأضمها بين ذراعى وأغمر وجهها بالقبل لأخفف عنها وطأة آلامها ولكنى لم أستطع إذ كانت قواى قد خارت ونفسى قد تضعضعت فجلست على أقرب مقهى وجدته ، وما شعرت إلا والتادل ينبهنى إلى موعد الانتهاء من سهرته. فقمت أهيم على وجهى طيلة الليل وأنا حائر ماذا أفعل وقد قطعت مع عمها وعدا بالزواج من ابنته . لو كان الحب فقط الذى أكنه لابنة عمها لكتمت أنفاسه وتخلصت منه..لكن كيف أتخلص من وعدى وبماذا لأعود إلى تلك التى أحبتنى فى صمت وتعذبت فى سبيلى كل هذا العذاب وأنا سادر عنها غافل عن أشجانها وآلامها ، فذبلت كما تذبل الزهرة قبل تفتحها لأنها حرمت الساقى الذى يتعهدها

وفى اليوم التالى بكرت فى الصباح وقد بيت فى نفسى أمرا . وقبل أن أصل إلى الدار سكت أذنى أصوات النساء يندبنها. فلما ولجت الباب رأيت خادمها حزينا . فلما سألته أخبرنى أن شريانا قد انفجر منها إثر صدمة نفسية لم تستطع لها احتمالاً . هكذا قال الطبيب . يا رحمتاه لها

فعلمت أنى قد قتلتها وأنا عنها غافل

وبعد أسبوع كنت أستقل القطار مبتعدا عن معهد ذكرياتى المؤلمة ؛ ولكنها ما زالت تطاردنى كلما وقعت عينى على صورتها التى لا تفارقنى

عبد الموجود عبد الحافظ